المحاضرة السادسة

قضية الفحولة عند النقاد :

لقد حازت قضية الفحولة على اهتمام النقاد والدارسين للأدب القدماء والمحدثين على حد سواء، وتجلّى ذلك الاهتمام في محاولة هؤلاء تصنيف الشعر وتجميعه وتمحيصه والوقوف على مميزاته وأصالته، واختيار أحسنه وانتخاب أفضل قائليه، وفي وضع معايير فحولة الشعراء وموضوعاتها وأغراضها.

مفهوم الفحولة:

ورد في لسان العرب أن كلمة "الفحل" تعني الذكر من الحيوان ، وجمعه: أَفحُل وفُحول وفُحولة وفِحال وفِحالة، مثل: الجِمالة. ومنه قول الشعر : فِحالة تُطرد عن أشوالِها. قال سيبويه: ألحقوا الهاء فيهما لتأنيث الجمع. ورجل فحيل: فَحل، وإنه لبيّن الفحولة والفِحالة، والفِحلة، وفَحَل إبلَه فحلا كريماً: اختار لها، و اِفتَحل لدوابّه فحلا كذلك... و الفَحيل : فَحل الإبل إذا كان كريما منجِباً... قال الراعي:

كانت نجَائبُ منذر ومحرّق أمَّهاتهن، طَرقهنَّ، فَحيلا

وأفحَله فحلاُ ": أعاره إيّاه يضرب إبله... واستفحل الأمر أي تفاقم. وامرأة فحلة: سليطة.

نلاحظ أن دلالة كلمة الفحل" لا تخرج عن معناها المألوف، وهو الذكورة في كل نوع، القوة، والإنجاب، والشيء الكبير، والتميز والمكانة الرفيعة.

وفحول الشعراء الذين ذكرهم ابن منظور، هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعره فغلب عليه، مثل علقمة بن عبدة، وكان

يسمّى فحلاّ لأنه غلب امرأ القيس في منافسة شعرية. والفحول: الروّاة، والواحد فحل. وتفحّل أي تشبه بالفحل.

- معايير الفحولة عند الأصمعي :

أورد الأصمعي تعريفا للفحولة في الجواب على السؤال الذي طرحه عليه حاتم. قال أبو حاتم: قلت: ما معنى الفحل؟. قال: يُراد أن له مزيّة على غيره، كمزيّة الفحل على الحقاق. قال : و بيت جرير يدل على ذلك:

وابن اللّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صَولَة البُزلِ القناعيس

والمعنى الذي يقصده جرير في هذا البيت، هو أنه قوي ولا يستطيع مدافعته أحد، كابن اللبون إذا ما قُرن مع البازل ، فإنه لا يقوى على مدافعة صولته، ويعني جرير أن من يهجوهم هم أضعف من أن يجازوه في شعره المحكم الرّصين.

ما يمكن أن نستخلصه من كلام الأصمعي، أنه خط معيارا هاما للفحولة وهو التفوق الكبير ، والمزية العظمى التي يتميز بها الشاعر الفحل دونا عن أقرانه الذي له "مزية عن غيره"، وهو الشاعر الذي يتقدم بشعره ، فيكون قائد الشعراء ، والمثل الأعلى الذي يُحتذى به، كميزة امرئ القيس على غيره، حيث قال عنه الأصمعي بأنه كان " أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الخطوة والسّبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه".

فالشاعر الفحل يكتسب صفات تجعله متميزا عن غيره من الشعراء، كما يتميز الفحل الضخم من الإبل عن غيره من الفحول ، وقد جمع أدونيس مقاييس الشاعر الفحل هاته كالآتي: "الحظوة ، أي المنزلة والمكانة.. السبق.. الأخذ من قوله واتّباع مذهبه. وإذا عبّرنا عن ذلك بلغتنا ومصطلحاتنا الحديثة، قلنا إن الشاعر العظيم في نظر الأصمعي هو الذي يبتكر ما لا سابق، ويؤثر في الذين يأتون بعده فيسيرون في الطريق التي فتحها ".

وقد أشار الأصمعي إلى قول رؤبة الذي قال بأن " الفحولة هم الرواة"، المقصود بالرواة هم الشعراء الذين يروون شعر غيرهم من الشعراء ، ومن هنا يمكن أن نقول بأن الفحولة لا تتأتّى إلا برواية الشعر، وإتّباع خطى الفحول من الشعراء، والسير على نهجهم، وإتّباع مذهبهم، وفي

هذا المعنى قال الأصمعي: "لا يصير الشاعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه، ويقيم به إعرابه، والنسب وأيام العرب، ليستعين بذلك على معرفة المناقب وذكرهما بمدح أو بذم".

وبهذه المعايير من تهذيب الشعر، والسبق في طرق مختلف الأغراض، والجودة في نظم الشعر، حاز بها امرؤ القيس قصب السبق حسب الأصمعي.. وصار إمام الشعراء وقائدهم في تناول مواضيع مختلفة في الشعر، وتنوع في الأغراض، وكان أول من أبدع الاستعارات والتمثيلات الجيدة.

ويمكن استخلاص معايير الفحولة عند الأصمعي في هذه المعايير:

1- معيار الكثرة أو الكم الشعري: فكلما كان الشاعر مقوالا، كلما كانت له الأحقية في التقدم عن غيره حتى يرتقي إلى مرتبة الفحولة، ويؤيّد ذلك هذا الشاهد الذي سأل فيه أبو حاتم السجستاني أستاذه الأصمعي فقال: " قلت فالحويدرة ؟ (شاعر جاهلي). قال: لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلا "' والقصيدة المعنية هي التي مطلعها:

بكَرت سَميّة غُدوة فتمتّع وغدت غُدُو مُفارق لم يَرجعِ

ولمّا سأله عن المهلهل أجاب الأصمعي: "قال : ليس بفحل، ولو كان قال مثل قوله:

أَلَيلَتنَا بذي جُشُم أَنِيري إذا أنتِ انقضيت فلا تحُوري

كان أفحلهم. قال : وأكثر شعره محمول عليه".

2- معيار جودة الشعر: فالشاعر المجيد في شعره له الأسبقية على غيره، لأنه هو الذي مهد الطريق للشعراء في طرقه لموضوعات الشعر أولا وتطويع أغراض الشعر، ومن هذه الناحية

فقد منح الأصمعي قصب السبق لامرئ القيس حين قال عنه: "ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس:

وقاهُم جدُّهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العِقابُ

قال أبو حاتم: فلما رآني (الأصمعي) أكتب كلامه فكّر ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه" .

3- معيار الزمن: يعتبر الأصمعي الشعراء الجاهليين هم فحول الشعر، أما من جاءوا بعدهم في العصور التالية فهم دونهم منزلة، ومعياره في ذلك هو الزمن، لتقدمهم في نظم الشعر، ودليل ذلك جواب الأصمعي عن سؤال تلميذه السجستاني، حيث قال: " قلت: فجرير والفرزدق والأخطل؟. قال: هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئا لأنهم إسلاميون"، فالشاعر الجاهلي في نظر الأصمعي حجة وفحل، لا يتقدم عليه شاعر آخر مهما كان شعره جيدا، لأن من جاء بعده خالط لسانه اللحن الذي أفسد لغته .

وممّا تقدّم ذكره ، نستخلص بأن الأصمعي حصر الفحولة في النموذج الأمثل، وفي القُدوة، وفي الفضل والسبق إلى تناول مواضيع الشعر وتهذيبها، لتكون منهاجا يتمثل به كل من جاء بعده من الشعراء .

- الفحولة في رأي ابن طباطبا :

انطلق ابن طباطبا لبيان رأيه في قضية الفحولة من حديثه عن صناعة الشعر التي تجعل الشاعر فحلا مُجيدا، وهي الإعتناء بالمعاني الجيّدة، ووضع ما يناسبها من ألفاظ ، واختيار الوزن والقافية المناسبة أيضا، وقد أجمل ابن طباطبا هذه الصناعة في أن الشاعر الفحل إن أراد نظم شعر جيد " مخَّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إيّاه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه".

فابن طباطبا وضع معايير أساسية للشعر الجيد وللشاعر البارع الفحل، الذي شبهه بالنسّاج البارع، والنقاش الحاذق، وناظم الجواهر العارف فقال عنه: " يكون كالتاج الحاذق الذي يُفوّف وشيه بأحسن التّفويف، ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه، وكالنّقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يُفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها ".

ومن هذا الكلام نلاحظ أن ابن طباطبا وضع عيار الشعر الجيّد الذي يدل على الشاعر الفحل المجيد، مثلما تدل قطعة الصوف المزخرفة بأروع الأشكال ، والملونة بأجمل الألوان على براعة النسّاج، فكذلك عُدّ النص الشعري نسيجا وتطريزا.

- حازم القرطاجني وقضية الفحولة :

تناول حازم مناقشة معايير الفحولة لدى الشعراء، ويبدو ذلك في قوله: " ولا يكمل للشاعر قولُ على الوجه المختار إلا بأن تكون له قوّة حافظة وقوّة مائزة وقوة صانعة ".

وعليه فإنّ معايير الفحولة عند حازم تتمثل في ثلاث قوى أساسية، وهي مقدرة الشاعر على بناء النص الشعري بناء جيدا؛ وهي القوة الحافظة، والقوة المائزة، والقوة الصانعة، وهذه الأخيرة هامة جدا لأنها " تتولى العمل على ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض والتدرج من بعضها إلى بعض، وبالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة ".

فالقوة الشعرية الصانعة هي الأساسية لأنها هي التي تظهر الفحول من الشعراء وتقدّمهم على غيرهم.

ويؤكد حازم أنّ السبيل المُبلّغ إلى الفحولة، هو اتّباع سبيل الشعراء الفحول، على عادة ما كان سائدا في الجاهلية، حيث كان الشاعر الناشئ يلزم شاعرا فحلا يحفظ أشعاره ويرويها،

وفي الآن ذاته يتتلمذ على قرض الشعر ونظمه، وهكذا يصير شاعرا فحلا، الأمر نفسه كان في الجاهلية حيث لكل شاعر" راوية يروي له ويأخذ عنه نهجه في الشعر ويتتلمذ عليه ويتأثّر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الإيادي، وطرفة راوية المتلمس والأعشى راوية المسيب بن علس، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوي معا، والحطيئة راوية زهير، كما كان الفرزدق وهدبة راويتين للحطيئة، وأبو حية النميري راوية الفرزدق، وجميل راوية لهدبة، وكثير راوية لجميل في العصر الإسلامي ".

فأهمية الرّواية تكمن في صناعة الشاعر المُجيد ، وفي حفظ الشعر من الإندثار والضياع، كما مكّنتنا من معرفة سبل نظم الشعر وصناعته في وقت كانت العرب لا تعتمد على تدوين "شعرها في الجاهلية في ديوان أو سفر وإنما كان محفوظا في الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية ".

- الفحولة عند ابن رشيق:

تطرّق ابن رشيق إلى الكلام عن الفحولة من خلال حديثه عن أصناف الشعراء، فركّز على أهمية رواية الشعر في ترتيب الشعراء، وحسبه هناك أربع طبقات من الشعراء، وهم"شاعر خنذيذ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيّد من شعر غيره.. وشاعر مفلق، وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجوّد كالخنذيذ في شعره. وشاعر فقط، وهو فوق الرديء بدرجة. وشُعرور، وهو لا شيء".

ويبين ابن رشيق أن للدربة والمران والرواية أهمية بالغة في تكوين الشاعر الفحل، وفي ترتيب الشعراء بحسب جودة شعرهم، ويصرّح بأن الشاعر الجيّد هو من كان راوية لأشعار غيره من الشعراء ، وهذه الرواية أكسبته معرفة بفنون الشعر وأغراضه، ودراية بأيام العرب وداراتهم، وأطلعته على معرفة أنسابهم، فكل ذلك يكسبه خبرة ودراية بنظم الشعر والإجادة فيه فتكون له المرتبة الأولى ، متقدما عن بقية الأصناف الأخرى من الشعراء الذين يأتون دونه وهو الشاعر

والشعرور والشويعر، وما أخّرهم عن درجة الفحولة حسب ابن رشيق سوى أنهم لم يروُوا شعر غيرهم من فحول الشعراء، فجاء شعرهم لا جودة فيه، بعيدا عن فضائل الشعر، يظهر ذلك في ضعف العروض، والبعد عن إصابة مناهل التشبيه والمقاربات البديعية.

والجدير بالذكر هنا، أن هذه الصفات (الشويعر والشعرور) ، هي نعوت القصد منها التحقير والتصغير والحطّ من بعض الشعراء أثناء سجالاتهم ومشاتمات بعضهم لبعض، من ذلك ما أورده ابن رشيق عن الأصمعي أنه قال: " فالشويعر مثل محمد بن حمران بن أبي حمران، سماه بذلك امرؤ القيس".

وقال أيضا: " وقال العبدي في شاعر يدعى المفوف من بني ضبة ثم من بني حميس:

ألا تَنهي سَراةُ بني حميس شُويعرًها فُويليَة الأفاعِي

فسمّاه شُويعرا وفويلية الأفاعي، دويبة فوق الخنفساء ، فصغّرها أيضا تحقيرا له".

ومن هذا الشاهد الذي أورده ابن رشيق، نستنتج أن تصنيف الشعراء إلى طبقات ومراتب حسب هذا النهج تبدو غير موضوعية وغير دقيقة، لأنها بعيدة عن معايير الصناعة الشعرية، ولا تعتني بخبرات وقدرات الشاعر، إذ كيف يعقل أن يحكم على جودة الشعر من عدمه من خلال المشاتمة والانتقاص من شاعر من قبل شاعر آخر، دون إيراد برهان قوي، أو حجة دامغة.

وهكذا نرى أن معايير الفحولة التي وضعها الأصمعي هي الجودة والكثرة والسبق الزمني، بالإضافة إلى معايير أخرى منها: الاحتراف بالشعر، تعدد الأغراض، الذوق الشخصي، التفرد بغرض بعينه، الطبع، الفصاحة اللغوية.. وعموما فإن الفحولة عنده مرتبطة بغرضي المدح والهجاء، لما لهما من أهمية بالغة تبرز مكانة الشاعر ومقدرته على نظم الشعر.

- معايير الفحولة عند ابن سلام الجمحي :

رتّب ابن سلاّم الشعراء في مؤلفه إلى طبقات بحسب مكانتهم من بين غيرهم من الشعراء، وبيّن ذلك في قوله: " ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء ... فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا مَن تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة، متكافئين معتدلين".

والمقاييس التي وضعها ابن سلام في ترتيب الشعراء هي:

1- **معيار الجودة :** فالشاعر المُجيد هو مقدم على غيره، حتى ولو كان شعره كثيرا، ومتنوّع الأغراض، وإذا كان شعره رديئا فهذا لا يجعل منه شاعرا فحلا، ولذلك فقد قدّم حسان بن ثابت ووضعه على رأس فحول شعراء القرى العربية وقال فيه: "أشعرهم حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيده".

2- **معيار الكثرة أو الكم :** اعتمده ابن سلام في المفاضلة بين الشعراء، وحسبه فإن الشاعر الفحل مَن كثُر نظمُه وتعددت موضوعاته، وقد أخر بعض الشعراء لقلة شعرهم، كما فعل مع طرفة، وعلقمة، وعدي بن زيد، وعبيد بن الأبرص، الذين وضعهم في الطبقة الرابعة فقال :

" وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة".

3- **معيار تعدد أغراض الشعر:** اعتمد ابن سلاّم في المفاضلة بين الشعراء على مبدأ تعدد الأغراض التي يطرقها الشاعر، وعلى هذا الأساس فقد برّر تقديمه الأعشى لأنه كان "أكثرهم عروضا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده".

- الفحولة عند ابن قتيبة :

من المعايير التي وضعها ابن قتيبة للفحولة تلك التي نستقيها من كتابه الشعر والشعراء ، ومنها:

1- إتباع نهج القدماء في قرض الشعر:

وضع ابن قتيبة منهجا للشعراء ينظمون الشعر وفقه، وقد أخذه من استقراء القالب الأمثل الذي سلكه الشعراء القدامى في قرض الشعر، يقول ابن قتيبة: " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدة منها أغلب على الشعراء، ولم يطل ما قاله على السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظمآء إلى المزيد".

ويرى ابن قتيبة أن طريق الفحولة إنما هو التزام الشعراء بمذهب المتقدمين، وهو أن "يقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشي البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة".

2-معيار الزمن :

وقف ابن قتيبة موقفا وسطا بين الفريقين؛ الفريق الذي ينتصر للقديم ويلزم الشعراء بأن يسلكوا سبيل الشعراء القدامى في عمود الشعر والمعاني والألفاظ ، والفريق المتعصّب للجديد ويرفض النمط الشعري القديم كالبكاء على الأطلال ووصف الدمن.. بدعوى أن ذلك لم يعد صالحا للحياة الجديدة.

فابن قتيبة لم يفصل بين قديم الشعر وجديده، بحجّة أن المقدرة الشعرية لا تختص بزمن معين، بحيث أن في القديم شعرا جيدا وآخر رديئا، كما الشعر المولد والمحدث ، وبالتالي فإن مقياس تفضيل الشعر عند ابن قتيبة هو الشعر الجيد بقطع النظر عن الزمن الذي قيل فيه.

وقد أبدى رأيه في هذا بقوله: ".. ولم أسألك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلّد، أو أستحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظر بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاّ حظّه ووفرت عليه حقه.. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله".

3- **معيار اللفظ والمعنى:**

بيّن ابن قتيبة أهمية هذا المعيار في معرفة فحولة الشاعر، والوقوف على مقدرته الشعرية، وبالتالي إحراز تقدمه على الشعراء ، ولذلك بادر إلى تقسيم الشعر حسب اللفظ والمعنى إلى أربعة أضرب وهي:

"1- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه...

2- ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى..

3- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه...

4- وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه...".

فابن قتيبة يفاضل بين الشعراء من خلال معيار اللفظ والمعنى، لأنه ينجرّ عنه جودة الشعر أو رداءته .